الدرس رقم 09

التنظيمات القبلية في المغرب الإسلامي

(البنية –التجذر –الاستمرارية)

6–9م

1–التوطين في أنظمة المستوطن البيزنطي

مدخل إشكالي إلى موضوع الدرس :

عزيزي الطالب

هناك علاقة واضحة بين رصد بنية المجتمع البربري من بوابات تاريخية عديدة ومتباعدة في الأزمنة، وبين توطينه الذي اتخذ من القرن السادس إلى القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري صبغة التجذر والاستمرارية حيث اقترنت تنظيماته وتعدد أشكال بنياته الاجتماعية والاقتصادية بمقاومة الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي، فقد أوجد هذا الصراع مع الأجنبي مظاهر من التوطين البربري تجلت في مظهرين من التنظيمات القبلية ويتعلق المظهر الأول **بالتوطين البربري داخل أنظمة المستوطن الأجنبي** ويتمثل المظهر الثاني في **استقلال القبائل البربرية الكبرى داخل نظام القبيلة الاجتماعي والسياسي والعسكري**

لكن إلى أي مدى يمكن لهذه الظاهرة الجذلية أن تساعدنا في رسم بنية التوطين البربري داخل هذه التنظيمات ؟ وماهي الكيفية التي يمكن بضوئها أن نتوصل إلى حصر أشكال التوطين؟

– تاريخية التوطين في مجتمع البربر(التجذر)

ارتبط توطين البربر في أرضهم –بلاد البربر–بالظاهرة الاستعمارية المتوالية التي كانت في كل مراحل التاريخ القديم والوسيط تفرض عليهم سياستها العسكرية وتنظيمها الإداري واستيطانها الاجتماعي واستغلالها الاقتصادي، وفي كل ردود أفعالهم الثورية كان الوضع ينتهي بالقبائل البربرية المناهضة إلى ثلاث حالات :

بحيث كان يتم في الحالة الأولى ،النزوع إلى ما وراء خطي الليمس الروماني أي ما وراء الأول (منذ القرن الثاني الميلادي)و ماوراء الثاني (وهو الموسع في العهد السيفيري خلال القرن الثالث الميلادي)، وبالتالي أضحى خط الليمس الوسيلة الأمنية لتركيز عملية التوطين بالنسبة للبربر وإنشاء الحصون والتعمير بالنسبة إلى الاحتلال الروماني بين خطي الليمس (انظر **الهادي حارش :التاريخ المغاربي القديم**)، وهذا في حد ذاته يعكس طبيعة السياسة الرومانية التي كانت ترفض كل تأهيل للبربر داخل الحياة الحضرية ، وهي السياسية التي اعتمدتها منذ 46 ق.م واستمرت في تطبيقها إلى 429م وذلك بعد قضائها على تجربة الحياة الحضرية والاقتصادية التي عاشها مجتمع البربر في نظام الممالك الوراثية للماسيسيل والماسيل انطلاقا من مدينتي sigga و سيرتا cirta–قسنطينة حاليا- بين 202 ق.م إلى 46 ق.م.

وخلال هذه السياسة الرومانية تم تطويق مجتمع البربر إلى جانب خطي الليمس، كذلك بحزام من المدن الساحلية ذات التحصين العسكري والطبيعة التجارية وتمتد من البانتبول (برقة) شرقا إلى نهاية حدود المملكة الطنجية غربا (طنجة).

ورغم ذلك ظلت البنية القبلية محافظة على قوتها في مواجهة الاحتلال الروماني ،والذي ساهم بطريقة غير مباشرة في تكوينها عندما كان يقوم بدحرها عقب كل ثورة فينتهي بها الحال إلى التوطين بالجبال والصحراء،فقد تم طرد قبائل **الموزيلام** من أراضيها عقب القضاء على ثورة تاكفاريناس 16-24م وتهميش قبائل الباكوتاس (أي في المغربين الأوسط و الأقصى لاحقا) خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي داخل حدود الليمس، فضلا على تصاعد الثورات منذ القرن لثالث الميلادي إلى النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي من خلال نشاط الحركة الدوناتية وثورتي فيرموس و جلدون والتي تعتبر محطة مهمة في تشكل تجربة الاتحاد القبلي المستقل (انظر **محمد حسن : القبائل والأرياف**).

1–التوطين في أنظمة المستوطن البيزنطي(البنية)

وهي الساكنة التي زاحمة الاستيطان البيزنطي عقب طرد الوندال سنة 533م من مدن أنطابلس الخمس وعاصمتها برقة والبلاد الطرابلسية من لبدة شرقا إلى قابس غربا، وقد وجدها عرب الفتح خلال القرن السابع الميلادي/الأول الميلادي في أوضاع من المجاورة والاندماج في ثقافة ودين واقتصاد الاستيطان البيزنطي و يعكس هذه المظاهر انخراط قبائل من لواتة وهوارة ومسوفة في جغرافيا الاستيطان البيزنطي التي ترتكز على بنية اجتماعية وحضرية وجهاز سياسي متطور وآلة عسكرية متقدمة (**محمد حسن :المرجع السابق**)

وهنا لابد من الوقوف على السياق التاريخي الذي انتهى بهذه القبائل إلى الانفراط من قبائلها الأم،والتحول إلى الحياة الحضرية في كنف الاستيطان البيزنطي الذي كان ينعت هذه القبائل البربرية "بالمور" والتي يبدو أنها كانت مستقلة في إمارات خلال العهد الوندالي 429-533م ، يدل على ذلك استقبال القائد البيزنطي بليزاريوس في بداية احتلاله للمقاطعة الإفريقية وفدا عن الإمارات المورية والتي أعلنت ولاءها له مقابل اعترافه باستقلالها (**proccope**: **Guerre contre les vondales**)، لكن العلاقة سرعان ما أخذت منحى الصراع العسكري بعد أن أخذ الاحتلال البيزنطي في تنظيم الأملاك واستغلال الضياع من خلال سياسته الاستيطانية التي شرع في تنفيذها ما بين 534-570م كما أسلفنا في محاضرة " مجتمع الاستيطان البيزنطي بالمقاطعة الإفريقية "،والتي من تجلياتها انتهاك القائد البيزنطي سيرجيوس سنة 543م الأراضي الزراعية التابعة لقبائل لواتة و هوارة في السهول و الهضاب و هي الأراضي التي حازتها عيشية الإحتلال الوندالي لإفريقيا سنة 429م (**proccope**: **Guerre contre les vondales**) مما أدي إلى ثورات بربرية تزعمتها لواته ضد الإحتلال البيزنطي 544-548م و شملت ولاية المزاق البيزاسان أي بلاد الساحل لاحقا و الولاية البروقنصلية (الإقليم القرطاجي القديم) و فيها حاصرت العاصمة قرطاجة غير أن انهزامها بالقرب من الأربص lairdus، قد أتاح للبيزنطين فرصة طرها إلى لصحراء وراء خط الليمس بنواحي نقرين .

و يبدو أن البيزنطيين أدركوا تحت ضغط ظروفهم القاهرة في آسيا و البلقان كما أسلفنا في المحاضرة السابقة و كذلك عجزهم أمام ديمومة عودة هذه القبائل إلى موطنها في الشمال (أنطابلس و البلاد الطرابلسية) و هذا ما أكده **proccope** في حديثه عن تمليك قبائل لواتة و هوارة في القرن السادس الميلادي للهضاب الطرابلسية و من هنا أدرك الإحتلال البيزنطي أن القضاء على هذا التحالف

القبلي بالقوة العسكرية يعد أمرا مستحيلا ، لذلك عمدوا إلى سياسة إضعاف هذا التحالف القبلي عن طريق نشر المسيحية بينها و فرض الجباية عليها كأسلوب للمهادنة و الإخضاع ، و هي السياسة التي أتت أكلها من خلال مظاهر إنخراط بعض القبائل البربرية في الديانة المسيحية و صعودها إلى توطين مدن أنطابلس و البلاد الطرابلسية و هي الصورة التي أدركهم عليها العرب الفاتحين في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي و نقلت لنا مصادر الفتوح و الأخبار مظاهرها.

2–مظاهر توطين القبائل البربرية بأنظمة المستوطن البيزنطي خلال القرن الأول الهجري /7م (الاستمرارية)

لخص عبد الرحمن بن خلدون استجابة هذه القبائل للسياسة البيزنطية في قوله " **و كلهم دانوا لعهدهم بما تعبدوهم من دين النصرانية و أعطوهم المهادنة و أدوا إليهم الجباية طوعا** " (انظر **العبر ،ج6**) ، و في مصادر الفتوح كذلك ما يؤكد اعتناق القبائل الغزنلسية بغدامس و قبائل من نفوسة التي توطنت بصبراته (سيبرت) للديانة المسيحية كما وجدوا قبائل لواتة الوثنية ساكنة بمدينة برقة و الأراضي التابعة لأنطابلس و هم الذين وصفهم البلاذري " **بأهل لواتة من البربر من أهل برقة** " (انظر :**فتوح البلدان، ج1**) و الذين كانوا يؤدون الجباية لمقوقس مصر قبل وصول عمرو بن العاص إلى برقة في سنة 21هـ/643م .

و في هذا المضان يحسن التذكير أن هذا المجتمع البربري الذي توطن بأنظمة الاستيطان البيزنطي و مدنه كان يقابله إلى الجنوب مجتمع القبائل الأم أي قبائل لوتة و هوارة و نفوسة التي فضلت التوطين ما بين برقة و زويلة و جنوب طرابلس و صبراته (سبرت) ، و هي خاصية أغلب قبائل البتر في التوطين جنوب سلسلة التل في المناطق الصحراوية .

أضف إلى ذلك أنها امتثلت هادئة خلال القرن السابع الميلادي / الأول الهجري أمام الفتح الإسلامي و قد علل هشام جعيط هذا التصرف بأنه **نتاج "استنفاذها تحت الهيمنة السابقة" (انظر تأسيس الغرب الإسلامي**) و هذا ما نلمسه في نصوص كل من **ابن عبد الحكم** 257هـ/871م و البلاذري 279هـ/892م حول استجابة مجتمع قبائل انطابلس (برقة) إلى سياسة عمرو بن العاص الجبائية بعد أن فتحها 21هـ/643م حيث وجدها تربة صالحة لبذر أسس مجتمع جديد وصفهم

البلاذري أنهم كانوا "**أخصب قوم بالمغرب**"(انظر **فتوح البلدان ،ج1)** ، لذلك أعرب عن أمانيه في توطينها في قوله "**فما أعلم منزلا أسلم و لا أعزل منها** " (**البلاذري ، فتوح البلدان ،ج1**)، و حتى عندما فرض عليها الجزية فإن أهلها كانوا يبعثونها إليه حيث مقر ولايته بفسطاط القاهرة ، و هذا ما عاناه ابن عبد الحكم المصري " **و لم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، انما يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها** "(انظر **فتوح افريقية و مصر**) ، و هي ذات الصورة التي أكدها كذلك البلاذري في قوله " **أن أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غبر أن يأتيهم حاث أو مستحث**. "(**انظر فتوح البلدان ،ج1**)، وهذا في حد ذاته يؤشر إلى حالة الطبيعة المسالمة التي آلت إليها هذه القبائل خلال الفتح الإسلامي ، بعد أن أرهقتها حروب الوندال و البيزنطيين في القرنين الخامس و السادس الميلاديين.

الدرس رقم 10

التنظيمات القبلية في المغرب الإسلامي

(البنية –التجذر –الاستمرارية)

6–9م

2–التوطين في القبائل المستقلة

1–التوطين من خلال الظاهرة القبلية المستقلة خلال القرنين السادس و السابع الميلاديين /الأول الهجري

بعد أن تمكن الإمبراطور جوستينيان 527ه/565م من طرد الإحتلال الوندالي 429ه/533 م من المقاطعة الإفريقية الرومانية سنة 533م قام انطلاقا من عاصمته القسطنطينية بتطبيق مرسوم سنة 534م أعاد بموجبه تقسيم المقاطعة الافريقية إلى ولايات تتمثل من الشرق إلى الغرب في ولاية البلاد الطرابلسية و ولاية المزاق (البيزاسان) و الولاية البروقنصلية (الإقليم القرطاجي القديم) و ولاية نوميديا و موريطانيا القيصرية و هنا نلاحظ أن البيزنطيين قد تخلوا في الشرق على أراضي لوبية بما فيها إقليم البنتابول (المدن الخمس وعاصمتها برقة) و قلصوا حكمهم على الموريطانيات القيصرية والسطايفية في موريطانيا واحدة وهي موريطانيا القيصرية ، كما أطلقوا يد الفيزيقوط(القوط الغربيين) في بيتيكا Bétique(الأندلس) و موريطانيا الطنجية، وهذا لأسباب قاهرة تتعلق بظروف : إنتشار الطاعون في البحر الرومي 542م و ثورات الشعوب اللمباردية في ايطاليا و السلاف و الأوار و البلغار في البلقان و اجتياح الفارسي لأرمينيا و بلاد ما بين النهرين و الشام منذ 540م (Jean Claude cheyne Histoire de Byzance) ، و بالتالي انقطع كل أمل بيزنطي في التفكير لإعادة بسط الهيمنة على المقاطعة الإفريقية كما كانت في عهود الهيمنة الرومانية 310ق.م –429 م من برقة شرقا إلى طنجة غربا و منذ أواخر القرن السادس الميلادي تنازل البيزنطيون بالمقاطعة الافريقية في عهد الإمبراطور موريس و حاكمه على مقاطعة افريقية غينياديوس 531–582 م على موريطانيا الطنجية ماعدا سبتة septemللقوط الغربيين(الإسبان)،و اكتفوا في موريطانيا القيصرية بشرشال و بعض المدن و مناطق السهول الساحلية حيث تتركز الضياع و الحصون أما في الشرق فقد تنازلوا كذلك عن البلاد الطرابلسية (لبدة ، و أويا و صبراته و جرجيس و جزيرة جربة و قابس إلى حاكم الأندلس كان من القوط الغربيين لذلك وصف **عبد الرحمن بن خلدون** هذا الحكم بالفرنجة تمييزا لهم عن روم القسطنطينية (العبر،ج6)، كما استمر التبدل الإداري و الجغرافي ساريا في المقاطعة الإفريقية إلى أوائل القرن السابع الميلادي

/الأول الهجري في ظروف إعلان جرجير الثاني الإستقلال بالمقاطعة الإفريقية عن القسطنطينية حيث ضم نوميديا إلى الولاية البروقنصلية (الإقليم القرطاجي) و قد أدى هذا التبدل في الأوضاع الجغرافيا التاريخية و الإدارية للمقاطعة الإفريقية إلى بروز أقاليم لم تعد خاضعة للبيزنطيين و الفرنجة (حكام اسبانيا و الصقلية) ، و هي الأقاليم التي استقلت فيها القبائل البربرية الكبرى داخل نظام القبيلة الاجتماعي و السياسي و العسكري .

2–مظاهر توطين القبائل المستقلة :

و من مظاهره الكبرى أن صار إقليم البنتابول (المدن الخمس و عاصمته برقة تسكنة قبائل لواتة IIAGUES البترية و ظلت ساكنة كذلك به إلى لغاية الفتح الإسلامي في 21هـ/643م من طرف عمر بن العاص انطلاقا من الإسكندرية لقول ابن عبد الحكم في هذا السياق " و سار في الخيل حتّى قدم برقة...و كتب على لواتة من البربر في شرطه عليهم" (**انظر فتح افريقية و الأندلس**) و شاطره **البلاذري** صفة انفصال هذه الجغرافيا البشرية من إقليم برقة عن المقاطعة الإفريقية البيزنطية في قوله :" **لما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية سار جنده يريد المغرب حتى قدم برقة و هي مدينة أطابلس ...و هي بين مصر و افريقية ...و كتب في شرطه على أهل لواتة من أهل برقة**" (انظر **فتوح البلدان** ،ج1).

و نفس الظاهرة نعثر عليها في نوميديا التي شهدت قيام ثورات بنطاق الأوراس تمخض عنها ظهور ممالك مستقلة نسبة إلى الأميرين **ماستياس** و **يابداس** ، وقد استمرت هذه الظاهرة القبلية المستقلة بالأوراس إلى غاية القرن السابع الميلادي ممثلة في حكم ملكة الأوراس داهية بنت تيفان (الكاهنة) التي قادت حلف جراوة البترية لمدة خمس سنوات في مواجهة الخلافة الأموية و قائدها بافريقية حسان بن النعمان 74-86هـ/693-705م (انظر **الرقيق القيرواني :تاريخ المغرب و افريقية ؛ابن خلدون :العبر ،ج7**) ،لقول ابن عذارى المراكشي"**و ملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين**" (انظر **البيان المغرب** ،ج1) .

و في الناحية الغربية من بلاد البربر أو ما كان يعرف بموريطانيا القيصرية و موريطانيا الطنجية فإن مظاهر قيام الممالك البربرية المستقلة كان جليا في القرن السادس الميلادي يعكس ذلك تحول بلاد

الشلف إلى ممالك مثل مملكتي ماسونا حول مدينة ألتفا و إمارة الونشريس –الجدار–(**العروي: مجمل تاريخ المغرب**)،وهي الظاهرة المستقلة التي استمرت في الناحية الغربية في ملك مغراوة التي كانت تمثل أوسع بطون زناتة من الشلف إلى تلمسان وجبل مديونة مصداق ذلك قول ابن خلدون "**وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام فأقره لهم وحسن إسلامهم** "(**انظر العبر: ج** 7)،كما كانت قبائل أوربة البرنسية بنطاق تلمسان النواة الأولى لقيام اتحاد قبلي بقيادة كسيلةان لبزم والذي دام حكمه خمس سنوات واتخذ خلالها من جبل أوراس نقطة ارتكاز نحو السيطرة على إفريقية وإخضاع القيروان لحكمه وذلك عقب انتصاره على عقبة بن نافع بتهودة سنة 63هـ/682م.

أضف إلى ذلك أن موريطانيا الطنجية كانت مسرحا لاستقلال قبائل الباكواتاس –برغواطة –منذ النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي خلال الاحتلال الروماني، ولما آل حكمها إلى القوط الغربيين عرفت في القرن السادس استقلال قبائل غمارة في الشمال وأوليلي– إمارة النقاوة– في الشرق ، ومصمودة بجبال الأطلس ونفزاوة في مرتفعات تازة ومكناسة وسط المغرب الأقصى(**انظر محمد حسن : القبائل في الأرياف المغربية في العصر الوسط**)

ومن هنا تستكشف أيها الطالب الماجد أن عرب الفتح وجدوا مجتمع البربر المستقل عن سلطة وإدارة الاحتلال البيزنطي كل في ناحيته وموطنه وهذا ما نستشفه من تعليق **عبد الرحمان ابن خلدون** حول طبيعة القتال التي كان جيش الفتح قد اختارها من خلال مواجهته :"**لكل أمة من البربر في ناحيتها وموطنها مع من تحيز إليها من قبل الإفرنجة**" (انظر **العبر**:ج7)

3–بنية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي في القبائل البربرية المستقلة 1–3هـ/7–9م

أيها الطالب الماجد يحسن لفت نظرك إلى أن الصورة الاستيطانية التي طبعت المجتمع في بلاد البربر وظلت مستمرة إلى القرن الأول الهجري /السابع الميلادي هي صورة المجتمع الحضري البربري المتوطن في أنظمة المستوطن الروماني والبيزنطي والذي وضحنا مظاهره في إقليم الولاية الطرابلسية و ولاية المزاق

والولاية البروقنصلية ضمن عنصر التوطين في أنظمة المستوطن البيزنطي كما سلف بيانه ، بينما المجتمع البربري المستقل من حيث بنيته واقتصاده يمثل صورة أخرى مختلفة ،والذي أخذ تكوينه وتنظيمه يبرز عندما تجاوز اعتبارات خطي الليمس في التوطين بشكل ملحوظ في القرنين الخامس والسادس الميلاديين وازداد نموا منذ أواخر القرن السادس الميلادي تحديدا و ظل بعد ذلك محافظا على توطينه وبنيته النظامية إلى القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري ، وهذا ما سيدخلك في إشكاليات عميقة وأسئلة جوهرية مهمة ذات استطلاع بعيد وفحواها :

ألم يؤد الفتح العسكري العربي إلى هدم بنية التوطين البربري المستقل ؟

وما دور التشريع الإسلامي الذي رافق الفتح في إعادة تكوين بنية اجتماعية جديدة في القرن الأول الهجري/السابع ميلادي ؟ وهل من مساهمة للجماعات الدينية والمذهبية في صياغة هذا التشريع وبالتالي التأثير على مجتمع البربر و زعزعة استقراره و استقلاله في القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي ؟ وما نصيب الحركة الإسماعيلية خلال القرن الثالث الهجري في تفكيك بنية هذا التوطين ؟

وإلى ذلك الحين فإن تقرير هذه الإشكاليات يعتمد على خارطة التوزيع الجغرافي لتوطين القبائل المستقلة ثم التعرض إلى ذكر بنيتها التي آلت إليها و استمرت عليها إلى تمام القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي .

4–التوزيع الجغرافي للقبائل البترية و البرنسية المستقلة

اعتنى عبد الرحمن بن خلدون برصد مواطن القبائل البربرية المستقلة البرنسية و البترية

أ–القبائل البرنسية المستقلة :

و تنتشر في جبال الأوراس و القبايل و الهضاب الشرقية و الأطلس بالمغرب الأقصى و جهات طرابلس ، و تتمثل في قبائل :

–**صنهاجة** من الحضنة شرقا إلى متيجة في الوسط و صولا إلى تيطرا (التيطري) غربا .

-**كتامة** كانوا مواطنين بأرياف قسنطينة و إلى تخوم بجاية غربا إلى جبل أوراس .

-**مصمودة** جبال الأطلس بالمغرب الأقصى،**غمارة** شمال المغرب الأقصى ،**هوارة** بجهات طرابلس و الأربس إلى الزاب ،**عجيسة** بضواحي تونس و الجبال المطلة على المسيلة فضلا على **أوربة** و **أزداجة** و **زواوة** (**ابن خلدون :العبر ،أجزاء 6،7**).

ب–القبائل البترية المستقلة :

-**زناتة** و تمتد من جهات طرابلس نحو جبل الأوراس و الزاب إلى وادي ملوية .

-**نفزاوة** و **مكناسة** وسط المغرب الأقصى قرب مرتفعات تازة و مكناس.

بالإضافة إلى القبائل الواقعة جنوب سلسة التل في مناطق الصحراء و منها **لواتة** جنوب مدينة طرابلس و **نفوسة** قرب صبراته (سبرت)(**ابن خلدون : العبر ،أجزاء 6،7**).

ج–البنية الاجتماعية و الاقتصادية للقبائل المستقلة :

و فيها يعيش البربر بوطن القبيلة داخل تنظيم سياسي و ساكنته مواطنين (**ابن خلدون : العبر ،ج6**)، و تتمفصل البنية الاجتماعية و الاقتصادية إلى :

-**بربر الضواحي** نسيج اجتماعي من ساكنة البربر المتوطنين بضواحي المدن الرومانية ثم المدن البيزنطية .

-**بربر الديار** و هو التنظيم الاجتماعي المؤلف من اجتماع قبائل و تسمى الدور .(**ابن منظور :لسان العرب ،ج13**).

-**بربر الأرياف و القرى** و ساكنتها من المزارعين يتوطنون بالأراضي الزراعية التي لم تكن خالصة للبربر وحدهم و إنما كان ينازعهم فيها كبار الملاك المزارعين من الروم و الفرنجة و الأفارقة و هم أصحاب الضياع الكبيرة.

-**بربر المجال** ويعكس ظاهرة تقلب القبائل أثناء رحلاتها الموسمية و لكل قبيلة من القبائل المستقلة مجالها المعلوم و في حالات الاحتكاك تتحول المجالات إلى فضاء للتناحر و القلائل (**ابن خلدون :العبر ،ج6**) .

الدرس رقم 11

مظاهر تأسيس مجتمع المغرب الإسلامي

خلال القرن الأول الهجري / 7م

عزيزي الطالب نلفت نظرك إلى أن طبيعة هذا الموضوع تستند إلى الفصل بين الارتباط السياسي لمجتمع البربر و مجتمع الاستيطان البيزنطي بالخلافة الإسلامية بمواثيق الصلح و المصالح و بين اتصال البربر بالإسلام عن طواعية من خلال مظاهر حسن التعامل التي جمعت قادة الفتح مع أمراء القبائل البربرية المستقلة ،مما يعني أن دخول البربر في الإسلام لم تكن كل مظاهره بواسطة القوة العسكرية للمسلمين، بقدر ماهو اختيار و قناعة ،تُعَلل مظاهره بضوء جذور التوحيد التي كان عليها بربر مغرب الوسط (المغرب الأوسط لاحقا) في عهود ماقبل الفتح .

–ظروف التأسيس

يحسن تذكيرك بأن وتيرة الفتح الإسلامي في بلاد البربر –المغرب الإسلامي– قد ارتبط بظروف الخلافة الراشدة ثم الخلافة الأموية بدمشق ، وكذلك بشراسة المواجهة العسكرية بين العرب الفاتحين و البربر المتحالفين من القبائل المستقلة مع نسيج الاستيطان البيزنطي من الروم و الفرنجة و الأفارقة ، لذلك أخذ الفتح مسارا زمنيا متقطعا ينوف على سبعة عقود ، و عقب المكاسب العسكرية التي كان الفاتحون يحققونها على أرض بلاد المغرب كان يرافق ذلك ظهور مشاريع تأسيس مجتمع المغرب الإسلامي الجديد وفق السياسة الاجتماعية التي تبنتها دار الخلافة و ما أصابها من تحوير من طرف ولاة مصر الطامحين إلى الغنائم و السبي ، ثم إن الطريقة البطيئة التي كان يضمحل بها مجتمع الاستيطان البيزنطي ، و صعوبة اختراق المشروع العسكري العربي للبنية الاجتماعية في القبائل البربرية المستقلة في تنظيم القبيلة و طابع الإمارة و الملك (من نماذج كسيلة و الكاهنة).

يجعلنا لا نغامر بالقول أن مجتمعاً إسلامياً جديداً قد تألف في بلاد البربر خلال القرن الأول الهجري /7م ،لأن قضايا الاندماج الأخرى في جوانب استيعاب الدين و اللغة و الأنساق الثقافية الوافدة كانت لا تزال محدودة و في بداياتها و إن تم في سياق الفتح ، تطلع قادته إلى تعليم البربر القرآن

و شرائع الدين و أحكامه ، و إلحاق الأقاليم المتنوعة بولاية مصر و فرض التبعية السياسية على الفرنجة و الروم و الأفارقة و تأسيس الدواوين .

و في هذا المستوى يَلُجُ السؤال عن أي مجتمع جديد تحدثت نصوص الفتوح و كتب الأخبار و الحوليات ؟ و هل أن العقود و العهود التي أبرمها كل من عمرو بن العاص و عبد الله بن سعد بن أبي سرح و أبي المهاجر دينار و حسان بن النعمان ، مع البربر و مجتمع الاستيطان كانت ذات صبغة واحدة تحكمها قاعدة "ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم و ما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم " ؟(ابن عذارى : البيان ،ج1)، أو أنها كانت تختلف من مرحلة إلى أخرى و حسب خبرة و حنكة كل واحد من هؤلاء القادة الفاتحين ؟و بالتالي إلى أي مدى تمكنت هذه المشاريع التأسيسية أن تذيب رواسب المنظومة القانونية البيزنطية و تدمج مجتمع الاستيطان و مجتمع البربر و المجتمع العربي الوافد في نظام من التعدد العرقي و التنوع الديني يمثله اليهود و النصارى و المسلمون ؟

1–جغرافية مشاريع المجتمع المغربي الجديد

لعل ما يلاحظ على المشاريع التأسيسية التي قام بها قادة الفتح في القرن الأول الهجري /7م ببلاد البربر أنها غير متكافئة في الشمول الجغرافي ، كما أنها متباينة في أسسها المالية و الإدارية و التنظيمية ، و من هنا اقتصر الأمر على الأقاليم التي تم فتحها .

برزت الجهود التنظيمية المبكرة مع عمرو بن العاص 21–23هـ /641–643م في إقليم أنطابلس و قاعدته برقة ثم امتد إلى البلاد الطرابلسية ، ثم اتسع مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح 27–33هـ/647–653م إلى إقليم المزاق انطلاقا من قمونية و سبيطلة في الجنوب الشرقي و قفصة في الجنوب و مرمجانة في الشمال و قصر الأجم في الساحل ، ثم اتخذت المشاريع التأسيسة طابع الإمتداد و التنظيم الإداري و المالي و العسكري مع الأمير الغساني حسان بن النعمان 74–86هـ/ 683–705م و شمل نطاقا واسعا ضم (إقليم برقة و البلاد الطرابلسية و المزاق أي بلاد الساحل و قاعدته القيروان ، و شمال شرق نوميديا و زابها ، و امتد غربا ليشمل الإقليم بين وادي الشلف إلى وادي ملوية أو ماعرف مبكرا في مصادر الجغرافيا ببلاد مغرب الوسط و الذي انتظم في كيان إداري و عسكري كان

يتبع ولاية افريقية و قاعدته تلمسان)(**انظر ابن عبد الحكم :فتوح افريقية و الأندلس ؛البلاذري :فتوح البلدان ،ج1؛أحمد الطاهري : فتوح افريقية و المغرب و الأندلس)** ، و كذلك طال تنظيمه الإقليم الممتد من وادي ملوية شرقا إلى طنجة غربا من خلال دخول قبائل أوربة البرنسية **بقلعة سقوما** في طاعته و إفادته للعبد الورع **صالح بن المنصور** إلى قبائل نفزاوة إلى بلاد الريف حيث نجح في إقناعها بالدخول في الإسلام رغم أنها لم تكن تتبعه من الناحية الإدارية و السياسية **(ابن عذارى : البيان ،ج1؛أبو القاسم الزياني : الترجمان الكبرى)** .

أما جهود الوالي موسى ين نصير 78هـ/698م فقد كانت ملامحها عسكرية و شملت (إقليم نفزاوة في بلاد الريف و مملكة أوربة البرنسية بقلعة سقوما و مملكة يوليان في نطاق قبائل غمارة بسبتة و مملكة طامون الزناتية بسجلماسة و مملكة مزدانة ببلاد السوس)(**أحمد الطاهري :فتح افريقية و المغرب و الأندلس**).

2–مجتمع البربر و الاستيطان البيزنطي بين الارتباط السياسي و الاتصال بالإسلام

أيها الطالب الماجد : هناك مسألة لابد أن تدرك أبعادها و مغزاها .

و تتمثل في ضرورة التنبه إلى الفرق بين **ارتباط مجتمع البربر و مجتمع الاستيطان البيزنطي بالخلافة الإسلامية بمواثيق و عهود السلم و المصالحة** التي سمحت لهم بالعيش في كنف الأرض التي شملها الفتح كذميين لهم أملاكهم و ديانتهم شرط الانتظام في أداء مستحقات الجزية و الخراج .و بين **ارتباط البربر بالإسلام** كمسلمين، لهم ما للمسلمين و ما عليهم .

و بينما نلمس الارتباط الأول من خلال حملة عمرو بن العاص على قبائل لواتة و هوارة و نفوسة و الروم و الفرنجة و الأفارقة بإقليم أنطابلس أي المدن الخمسة و قاعدتها برقة و البلاد الطرابلسية (أطرابلس)و مدنها لبدة ،و صبراتة ، و أويا، و قابس ، و حملة ابن أبي السرح على الروم و الأفارقة و الفرنجة أي مجتمع الاستيطان الزراعي و حلفائه من ملوك و أمراء القبائل البربرية المستقلة في إقليم المزاق و عاصمته سبيطلة .

أما الارتباط الثاني أي اتصال البربر بالإسلام فإن مظاهره تتجلى من خلال جهود أبي المهاجر دينار 55-62هـ/674-681م في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، و شملت النطاق الممتد من تخوم تلمسان إلى أحواز أوليلي بفاس أي موطن قبيلة أوربة بقيادة أميرها كسيلة بن لبزم (**ابن عذارى : البيان،ج1 ؛ابن خلدون : العبر ،ج6**)، كما بدخل ضمن هذا الارتباط جهود حسان بن النعمان السالفة الذكر .

3–التنظيم الاجتماعي المبكر بإقليم برقة و البلاد الطرابلسية

و شرع فيه عمرو بن العاص لما أكمل فتح انطابلس و البلاد الطرابلسية ، و فرض الجزية على لواتة في جغرافيتها بين برقة و زويلة و هذا يعني أن تنظيمه الاجتماعي قد شمل قبائل من نفوسة و هوارة و لواتة و هي قبائل حضارية كانت تتوطن بمدن برقة ،لبدة ،صبراته ، و قابس إلى جانب الروم و الفرنجة و الأفارقة و قبائل الصحراء البدوية (هوارة ، نفوسة ، لواتة) .

و يعتمد هذا التنظيم على الصلح و المعاهدة بين الطرفين و فق قاعدة " **ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم و ما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم** " ،و هو ما يلخصه كتاب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب وفيه يقول :"**أن من بَين زويلة و برقة سَلَمَ كلهم حَسنَ طاعتهم قد أدى مُسلمهم الصدقة و أقر مُعاهدهم بالجزية و أنه وضع أهل زويلة و من بنيه و بنيها ما رأى أنهم يطيقونه ،و أمر عُماله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فَيَرُدُوها في الفقراء و يأخذ الجزية من الذمة فَتُحملُ إليه بمصر ، و أن يأخذ من أرض المسلمين العشر و نصف العشر و من أهل الصُلح صُلحهم** " (**البلاذري :فتوح البلدان ،ج1**)، و على هذه العهود خضع مجتمع الاستيطان و البربر إلى السياسة الاجتماعية لدولة الخلافة .

4– الإخضاع الجبائي و الارتباط السياسي لإقليم المزاق بالخلافة

يعتبر إقليم المزاق أو بلاد الساحل و قاعدته القيروان من أكبر الأقاليم الإفريقية التي كان بتركز فيها مجتمع الاستيطان البيزنطي خلال القرن الأول الهجري /7م و فيه تعد طبقة كبار الملاك المزارعين المهيمنة على المظهر الجتماعي العام و لما حدث إخضاع هذا الإقليم على يد ابن أبي السرح وفتح قاعدته سبيطلة طبق على هذا الإقليم قاعدة أرض العنوة و التي مكنته من أن يحرز غنائم كبيرة بالغت

المصادر في أرقامها(300 قنطار من الذهب) (**ابن عذارى : البيان ،ج1؛المالكي ، رياض النفوس ،ج1**)، و لما وقع الاتفاق بين المجتمع الاستيطاني بالمزاق و بن أبي السرح عين عليهم **"رجلا يقال له حبحابة القائم بأمر إفريقية بعد جرجير "** (**النويري :نهاية الارب**) و ذلك على شرط التزامهم بدفع الجزية مقابل خروجه من بلادهم و بموجب هذا الصلح أصبح مجتمع الاستيطان البيزنطي بالمزاق خاضعا لنظام الخلافة بالمدينة المنورة بعد أن فك ارتباطه السياسي و الجبائي بالإمبراطورية البيزنطية بالقسطنطينية(**المالكي : رياض النفوس ، ج1؛ابن عذارى :البيان ،ج1**) و **نلفت نظرك** إلى أن هذا الارتباط استمر من 27هـ إلى 33هـ /من 647إلى 653م ثم انقطع بسبب مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه و نشوب الفتنة بين المسلمين .

5–بواكير اتصال البربر بالإسلام

تعود بواكير اتصال البربر بالإسلام إلى أحداث حملة أبي المهاجر ديرنار 55–62هـ/674–681م في عهد الخليفة المعاوية بن أبي سفيان ، و ذلك في أثناء توغله بجيشه غربا إلى تلمسان (ابن عذارى : البيان ،ج1)،حيث نطاق قبيلة أوربة البرنسية المستقلة من تخوم تلمسان إلى أحواز أوليلي و التي كان يحكمها الأمير كسيلة بن لبزم ، و قد استطاع أبو المهاجر دينار من أن يقنعه بالإسلام مصداق ذلك قول ابن عذارى "**ظفر به أبو المهاجر و عرض عليه الإسلام فأسلم** "(**البيان ،ج1**)

و لا شك أن قبيلته قد أسلمته كذلك من خلفه على عادة القبائل البربرية في إعتناق ديانة زعيمها و هي إذ ذاك على حد و صف ابن خلدون(أكثر عدداً و أشد بأساً) (العبر ،ج6) ، و في رواية أخرى أن عقبة بن نافع لما تولى ولاية إفريقية سنة 62هـ/681م و أراد غزو طنجة نصحه أبو المهاجر دينار بقوله :"**ليس طنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا** "(**المالكي :رياض النفوس ،ج1**)، و هذا يدل على المدى الذي بلغه اتصال البربر بالإسلام في الناحية الغربية من المغرب الإسلامي ، و ذلك بفضل سياسة اللين و الدعوة إلى الإسلامي بالحسنى ، و هذا ما تعكسه نصيحة أبي المهاجر دينار إلى عقبة بن نافع عندما أمسك بالأمير كسيلة تدل على قوة منهجه في جذب البربر إلى الإسلام عندما خطبه بقوله :" **بِئس ما صنعت كان رسول الله (ص) يتألف جبابرة العرب ، و أنت تأتي إلى رَجلٍ جبارٍ في قومه ، في دار عزهِ قريبُ العهدِ بالشركِ فتُهينه** " .

6–مرحلة التنظيم الإداري و الاجتماعي (69–86هـ/688–705م)

بعد أن تمكن الأمير حسان بن النعمان الغساني في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان من استعادة ولاية إفريقية بين 69هـ و 79هـ ، من خلال القضاء على مقاومة ملكة قبيلة جراوة بالأوراس ثم افريقية داهية بن مائية بن تيفان (الكاهنة)، (**ابن خلدون :العبر،ج6**) و طرده للروم من الولاية البروقنصلية و عاصمتها قرطاجة دانت له إفريقية على حد تعبير الرقيق القيرواني (**تاريخ افريقية و المغرب**)

و نظرا لخبرته الإدارية و السياسية فقد وضع أسس أول تنظيم اجتماعي على قواعد من النُظُم و الأحكام الجارية العمل بها في دار الخلافة بدمشق في سياق حركة صك النقد و تعريب الدوانين و تنظيمها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان 65هـ–86هـ مما أعطى لأعماله في مجال الإدماج الاجتماعي و التنظيم الإداري نفساً قوياً ، نقل لنا الرقيق القيرواني ت 425هـ/1033م تفاصيلها حيث يذكر أنه بعد نهاية مقاومة الكاهنة سنة 73هـ /685م بدأ في عملية الإدماج الاجتماعي و طبق ذلك على "**البربر الذي استأمنوا إليه اشترط عليهم أن يعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين بأجابو و أسلموا على يديه فعقد لواءين لولدي الكاهنة لكل واحد منهما ستة ألاف فارس و أخرجهم مع العرب يجوبون في افريقية يقاتلون الروم ومن كفر من البربر** "(**تاريخ إفريقية و المغرب**).

و في سياق إستراتيجية نشر الإسلام بين البربر فإنّه أرسل الرجل الورع صالح بن منصور كما أسلفنا سابقا إلى قبائل نفزاوة ببلاد الريف فاعتنقوا الدين الإسلامي بين يديه ، و لما أصبح هؤلاء البربر تحت قيادة طارق بن زياد بطنجة في عهد ولاية موسى بن نصير فإنّه دعى الدعاة العرب الذين هم في الجيش أن يعلموا البربر القرآن و أن يفقهوهم في الدين (**الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية و المغرب**).

و هو ما يعتبر دليلا على استئناف المشروع الاجتماعي للفاتحين في إدماج البربر في الدين الإسلامي و أحكامه ، رغم ما تميز به السلوك العسكري للقائد موسى بن نصير في حملته الأولى 83–85هـ/702–704م على إقليم طنجة و سجلماسة و السوس الأقصى و في الثانية سنة 86هـ/705م على بلاد تامسنا من ،المبالغة في التعسف و استخلاص الخراج و الإشتطاط في جمع السبي (أنظر **ابن**

قتيبة : الإمامة و السياسة ؛ابن عذارى : البيان)، و حتى يتمكن هؤلاء البربر الذين اعتنقوا الإسلام من استيعاب أحكام الشريعة فإنّه ترك فيهم ثلاثة عشر رجلا من التابعين يعلمون لهم القرآن و شرائع الإسلامي (**عبيد الله البكري: المسالك و الممالك**).

و لما عاد حسان بن النعمان إلى قاعدة حكمه بالقيروان سنة 74هـ/686م شرع في تدوين الدواوين وفق خططها المعمول بها في بلاد الشام و مصر و العراق أي إلى ديوان الجند و ديوان الجباية و الإدارة و هو ما أتاح له البدء في ربط الروم و الأفارقة الذين صالحوه بنظام الإدارة العربية بالقيروان بواسطة الخراج و هذا ما قصده الرقيق القيرواني بقوله :"**وصالح من ألقى بيده على الخراج و كتب الخراج على عجم إفريقية و على من أقام معهم على النصرانية و البربر و الروم** ".(تاريخ إفريقية و المغرب)

و من خلال هذه الجهود يتضح أن إدماج قبائل البربر غرب نهر وادي ملوية في الإسلام في عهد حسان بن النعمان قد تم برضى البربر و هو ما أثبتته نصوص النوازل الفقهية التي أكدت أن الأقاليم الغربية من بلاد المغرب ، قد "**أسلم عليها أربابُها و ليس فيها صُلحٌ و لا عنوةً**" حول هذا الموضوع (**انظر ابن أبي زيد القيرواني : النوادر و الزيادات،ج11 ؛الونشريسي : المعيار ،ج6**).